

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[15] على أنفسهم بما ارتكبوه من فطيع الفعّال، وما اقترفوه من شنيع الأعمال إـذ قالت: "أظننت يا يزيد ... أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك ييمستوثقة والأُمور متّسقة، وحين صفا لك مُلكنا وسلطاننا، فمه مه أنسيت قول الله عزّ وجلّ: (ولا يحسبن الذين كفروا أنّما نملي لهم خيراً لأنفسهم إـنّهم نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين) ". جواب على سؤال: إـنّ الآية الحاضرة تجيب ضمناً على سؤال يخالغ أذهان كثير من الناس وهو: لماذا يرفل بعض العصاة والمجرمين في مثل هذا النعيم، ولا يلغون جزاءهم العادل على إـجرامهم؟ يغلـن القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشائع قائ: إـنّ هؤلاء فقدوا كل قابلية للتغيير والإصلاح، وهم بالتالي من الذين تفتضي سُنّة الخلق ومبدأ حرّية الإنسان واختياره أن يتركوا لأنفسهم، ويوكّلوا إـلى أنفسهم ليصلوا إـلى مرحلة السقوط الكامل، ويستحقوا الحدّ الأكثر من العذاب والعقوبة. هذا مضافاً إـلى ما يستفاد من بعض الآيات القرآنية من أنّّه سبحانه قد يمدّ البعض بالنعيم الوافرة وهو بذلك يستدرجهم، أي أنّّه يأخذهم فجأة وهم في ذروة النعم، ويسلبهم كلّ شيء وهم في أوج اللّذة والتمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كلّ شقي، ويواجهوا في هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأنّ فقدان هذا النعيم أشدّ وقعاً على النفس، وأكثر مرارة كما نقرأ في الكتاب العزيز: (فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) (1). _____ 1 - الأنعام، 44.